التصوف بين التوظيف السياسي والثابت التاريخي

Sufism between the Political utilization and the Historical Facts

طارق عبد السلام لعجال*

أحمد ز كي إبراهيم @ إبراهيم**

Abstract

This paper discusses the relationship between Sufism and politics. The significance of this relationship presents itself at the heart of an emerging Western interest in Sufi political development. Western institutions have identified Tasawwuf as an internal mechanism imbedded in the Islamic system as viable option for shaping cooperation and understanding. Such an identification stems from factual ground realities embodied in certain Sufi schools, and a number of historical events, where Sufi are portrayed as foes of religion. This paper also examines the similarities and differences between classical and contemporary Sufi practices.

Keywords: *Tasawwuf, Sufi Order, West, Politics, Sufism*

ملخص

تدور هذه المقالة حول قضية من أهم قضايا التواصل الغربي بالحياة في العالم الإسلامي، وهي مسألة علاقة المؤسسات الصوفية بالعمل السياسي، وقد انبثقت أهمية هذه القضية من رحم الإهتمام الغربي المتزايد بالسبل الأنجعلتفكيك بنية الفكرة الإسلامية، وخصوصاً الفكرة التي تتبنى خيار الممانعة، والتي باتت تقف سداً منيعاً أمام الغرب ومخططاته في كافة أنحاء العالم الإسلامي، وقد اهتدت مؤسسات التخطيط والتنظير الغربية إلى آلية ذاتية، تكمن في البناء الإسلامي نفسه؛ وهي "التصوف" منطلقة في ذلك، من نماذج واقعية تجسدها بعض المدارس الصوفية، ومن نماذج سجلها التاريخ لرجال عدوا من أبناءها، ويلخص الموقف السلبي من تيارات الإسلام السياسي، والإذعان المطلق للسلط الحاكمة، وكذا تهميش الحواجز والتباينات الدينية من سلم الاهتمام؛ القواسم المشتركة بين هذه النماذج قديمها وحديثها. وهو عينه ما يريد الغرب أن تكون قناعات المسلمين وفقه، حتى يتمكن من إزالة حصون الممانعة المعطلة لمشاريعه ومخططاته، وسنحاول في هذه المقالة الوقوف على التصور الغربي للمسألة، ثم استرداد أحداث التاريخ للبرهنة على صحة التعميم الحاصل أم بطلانه.

---

* د. طارق لعجال، باحث في قسم التاريخ والحضارة الإسلامية، أكاديمية الدراسات الإسلامية، بجامعة ملايا، كوالالمبور، ماليزيا
tarekladjal@gmail.com

** أ.م.د. أحمد ذكي براهيم @ إبراهيم، محاضر في قسم التاريخ و الحضارة الإسلامية، أكاديمة الدراسات الإسلامية، بجامعة ملايا كوالا لمبور، ماليزيا

المقدمة:

منذ صدور تقرير مؤسسة راند الذي صدر عن " مؤسسة راند RAND Corporation " سنة ٢٠٠٧م ، والذي مكثت مؤسسة راند ثلاث سنوات في إعداده، هذه المؤسسة التي ترسم تقاريرها التي تُصدرها خطط السياسة الأمريكية في العالم مع الأحداث في العالم أجمع، ومنها منطقة ما يسمونه بـ " الشرق الأوسط " ، وقد حمل التقرير الأخير قضايا خطيرة جداً، وعُنون التقرير بـ: " بناء شبكات مسلمة معتدلة Building Moderate Muslim Networks " . منذ ذلك الحين والساحات العلمية بين العالمين الإسلامي والغربي تشهدان العديد من ردات الفعل والارتدادت على ما جاء فيه نظرا للخطورة التي احتوتها مقرراته واقتراحاته، وهو الأمر الذي ألقى في الساحة الفكرية العديد من المداولات والطروحات حول جدوى مثل هذه التقارير في عالم اليوم الذي يشهد واقعه تطاحناً ثقافياً وسياسياً بين العديد من أطرافه بينما تتغنى الأصوات فيه بدعاوى حوار وتآخي الحضارات، ولعل ما يهمنا في هذا التقرير الطويل ذي ٢١٧ صفحة هو تلك الإشارة الملحة لدور التصوف ومؤسساته في تذويب حدة التباين الإيديولوجي بين الإسلام والحضارة الغربية. ومهما يكن من شأن فالمسألة باتت اليوم تتربع على نصيب معتبر من حلقات الحوار والنقاش على مستوى العالم أجمع لذلك جاءت هذه الورقة كإسهام في هذا النقاش ليس من البعد الفلسفي والنظري الذي تبلورت فيه أغلب الدراسات السابقة بل من بعد تاريخي يجلّي حقيقة دور التصوف ومؤسساته في تحريك الفعل السياسي من عدمه وهي مسألة يطغو عليه البعد الثناقيمي. وكما أشارنا فإن نوعاً من الاهتمام قد عاد لينصب حول التصوف والمتصوفة، وهذا الاهتمام مصدره طرفان، الطرف الأول هو الطرف الأكاديمي العربي الذي كثيراً ما يُفاجأ بتوجهات العديد من المؤسسات الأكاديمية والجامعات في الغرب نحو إنجاز ندوات أو مؤتمرات مشتركة خصوصاً بالتصوف ورموزه، كالمؤتمرات الكثيرة التي تعقد عن ابن عربي والسهروردي وغيرهم، وعلى رغم أهمية هذا التوجه لكنه لا يزال يعاني من ثغرات منهجية عدة، أهمها محاولة قراءة التصوف عبر إخضاعه لمقولات فلسفية هو في الأصل لا ينضوي تحتها بأي شكل من الأشكال. أو من خلال مقولات وجمل قياسية مكررة حول الحلولية ووحدة الوجود. ويستطيع القارئ المتتبع أن يستذكر عشرات المقالات والدراسات التي تتحدث عن وحدة الوجود عند المتصوفة، ابن عربي وغيره، وكأن التصوف الإسلامي لا يمكن أن يُقرأ إلا من خلال هذه المقولة ذات الخصوصية المسيحية الخالصة Pantheism التي ادخلها رينان في التداول وتأبى ثقافتنا المعاصرة أن تتجاوزها. أما الطرف الآخر الذي بدأ يبدي اهتمامه بالتصوف فهم صناع السياسة المحليون والدوليون، ذلك أن التصوف في عالم الإسلام اليوم يمثل النموذج الأكثر راحة لصناع السياسة المحلية والعالمية، بين هاتين القراءتين سال الكثير من الحبر في الدفاع في مناقشات حادة بين أطراف ثلاثة، الأول منهم:

تيار صوفي سالك: يتبنى التصور الصوفي على شتى تمظهراته للحياة وعلاقة الإنسان بربه، وينطلق في كتاباته عن التصوف من واجب العقيدة والذات التي تمكّن منها التصوف فهو يدافع عن التصوف وعن تاريخه، ويبذل الجهد المضني في دحر الصورة القاتمة التي تحاول العديد من الدراسات تصدير التصوف وفقها، هذا من جهة

ومن جهة أخرى يعمل بجهد في رد التصور القائم على هلامية المبادئ الصوفية وتشبعها بقيم التسامح المطلق الذي يتجاوز حدود التشريع والمعتقد، والذي تحاول هو الآخر جهات عديدة –غربية خصوصا– تسويقه فيها.

تيار سلفي أثري: –إن صح التعميم– يتبنى القطيعة المطلقة مع التصوف ومقولاته، وبل ويبذل الجهد والجهيد في التشنيع به وتتبع دعاته ومدارسه إنطلاقا من قناعة مفادها غرابة هذا المذهب– التصوف– على البيئة الإسلامية، وتشبعه بالانحراف والضلال، ولا يكتفي بهذا فحسب بل ويحمله جريرة ما أصاب ولا يزال يصيب الأمة الإسلامية من انتكاسات وتعثرات حضارية، ولعلنا نقف على بعض أدبيات هذا التيار في الطروحات التي تتبناها المدرسة الوهابية وما حام حولها من مدارس وأفكار.

تيار حداثي غربي: ينطلق من منطلقات مخالفة تماما للتيارين الفارطين الذين تحركهما المشاعر الدينية القوية، إذ ينطلق هذا التيار من منطلق أن البيئة الصوفية هي أفضل البيئات الإسلامية لتقبل قيم الحضارة الغربية الوافدة نظرا لما تتشبع به هذه البيئة من قيم التواكل والتخاذل والتغافل عن الدنيا، والتعلق بقيم المأمول والذات الإلهية مما يبقيهم في عزلة عن القيم الواقعية الفاعلة في الحياة مما يسمح بتغلغل أي قيمة وافدة مهما كان محتواها، كما أنه لا يذيق ذرعا بأي كان مادامت الرابطة الإنسانية تجمع بين الجميع، ويرى في التصوف حالة جوانية فريدة تعلي من تقدير طوية الإنسان وحريته، وتزيد من تسامحه في التعامل مع الآخرين، وإيمانه بحقوق الإنسان، وبذلك يمكن استخدامه في محاربة التطرف، واستعماله على أنه الإطار الديني لثقافة سياسية إسلامية ذات سمت ديمقراطي، من هذا المنطلق يعمل هذا التيار على المنافحة على التصوف وتصديره كحل لأزمة العالم الإسلامي وللحالة الإيديولوجية المتأزمة بين الإسلام والغرب، وتتجلى طروحات هذا التيار في الطرح المؤسساتي الغربي الرسمي، وكذا في طروحات وكتابات العديد من المشتغلين بالدراسات الشرقية والإسلامية في الدول الغربية وكذا بعض المسلمين الحداثيين الذين تشربوا قيم الحداثة وفق التصور الغربي لها. والذي يهمنا في هذا المقام هو هذا التيار الأخيروهو الذي تدور حوله إشكالية المداخلة،كونه يمثّل الطرف الوحيد الذي ينطلق من خلفية تركيع العالم الإسلامي بأي وسلية كانت، ولا يعطي قيمة لأي تيار إسلامي مهما كان إلا بقدر ما يمكن أن يقدمه ذلك التيار من خدمات له ولمشاريعه، إضافة إلى أن التيارين الأول والثاني ليس أمر التصراع والتطاحن بينهما بغريب على المسار الفكري الإسلامي، فمنذ ولد التصو ف ولدت الروح التي تبنت فيه المعارضة الحادة بل والدامية في بعض الأحيان له. ولعل ما لاحظه التيار الثالث على خط الزمن المتعلق بتيارات الفكر الإسلامي من بقاء وديمومة للتيارات والمذاهب الصوفية على مر التاريخ، فقد شقت الصوفية دربا واسعا في تاريخ الإسلام منذ أن كانت مجرد شحنات عاطفية تجيش بها صدور الزاهدين، إلى أن صارت مؤسسات اجتماعية تتراوح في بعض الدول بين الدين والفلكلور، وفي أخرى بين العقيدة والسياسة. وطيلة القرون التي خلت والصوفية تخذل كل الذين تصوروا اندثارها، إما متهاوية تحت ضربات النقد اللاذع الذي تتعرض له من قبل الجماعات والتنظيمات والفرق الإسلامية التي تناصبها العداء، أو متصدعة بفعل موجات التحديث التي اجتاحت العالم الإسلامي في العقود الأخيرة من جهة، وترعرع الأشكال الأخرى لهيكلة الحالة الدينية سواء المسيَّسة أم الدعوية والخيرية من جهة ثانية.

لكن هذه الطر ق سارت في اتجاه مخالف للرسم البياني الذي خطه من توقعوا تدهور حالتها، واستطاعت أن تضم بين مريديها عناصر تنتمي إلى أكثر الفئات الاجتماعية والمهنية تحديدا. في مقابل هذا التجذر والبقاء شهدت الخط الزمني للتيارات الفكر الإسلامي تحلل واندثار العشرات من الجماعات والتيارات التي سبقته في الظهوركالمعتزلة والخوارج والعشرات من فرق الشيعة. مما كرس من فكرة نجعية هذا التيار في اقتحام العالم الإسلامي. ووفق هذه الرؤية الموسعة يحق لنا أن نتساءل عن آليات هذه المشروع الغربي وأهدافه من حملة تشجيعه للتصوف في العالم الإسلامي، وكذا عن صحة تعميماته التي انطلق منه واستنتج صلاحية الآلية الصوفية في تخفيف حدة التوتر بينه وبين بنى العالم الإسلامي. وذلك بالرجوع إلى جملة العينات التاريخية التي تصلح كإطار منهجي ومرجعي للحكم في مثل هذه القضايا.

١ – معالم مشروع التوظيف الغربي لظاهرة الصوفية:

ما من شك في أن الغرب ومؤسساته الفكرية أجهدت نفسها ولا زالت في العثور على سبل تفكيك العالم الإسلامي في شتى جوانبه، بعد إن اختارته عدوا استراتيجيا وهدفا لسياساتها ومخططاتها بعيد سقوط الاتحاد السوفياتي الذي كان يستحوذ على جل هذا الإهتمام الغربي، وقد كانت نبؤات صموئيل هنتغتون حول صراع الحضارت ايذانا رسميا لهذا التحول الذي مس السياسة الغربية –الامريكية خصوصا– لذلك تبارت منذ ذلك الحين كل المؤسسات الاستشراقية الاستشارية في وضع المخططات والمقترحات على طاولات صانعي القرار الغربي، فيما يتعلق بالعالم الإسلامي وسبل تفكيك بناه الفكرية ودمجها في معترك الثقافة العالمية بعوامل العولمة التي أخفت العديد من التمايزات الثقافية بين شعوب العالم، بينما ترنحت حينا، اندحرت أحيانا أخرى على عتبات الثقافة الإسلامية التي باتت تستفيد من هذه الظاهرة أكثر مما تخسر، ولعل الداعي الثقافي الذي يحرك السياسات الغربية يخفي تحته من الدوافع الاقتصادية والامبريالية ما لا يظهر به حجم الداعي الثقافي نفسه، إضافة إلى ما يدعوه الغرب بالإرهاب الذي بات المطية السهلة للتغيير وفرض السياسات على العالمي الإسلامي بشكل عام، وتحت هذا الغطاء– مكافحة الإرهاب– وتحت غطاء تفكيك عقدة الرفض التي تتميز بها الذهنية الإسلامية تجاه المنتوج الثقافي الغربي، تتحرك كل الجهود لبلورة منهج عمل أمثل للتعامل مع هذه الظاهرة. على أن المشاريع السابقة التي تمت تجربتها لم تأتي أكلها إلى هذا الحين،كنشر الفكر العلماني، وتشجيع التنصير، وغيرها من المحاولات الغربية العديدة التي توارت أمام قوة الرفض التي يتمتع بها التيار الآخر، لذلك بات على مؤسسات التفكير والتخطيط الغربي، أن تبحث عن حل من داخل هذا البناء نفسه يسهم في تمرير طروحاته، بمعنى البحث عن بديل إسلامي يحمل تصور إسلامي للحياة لكن يعارض طروحات تيارات الرفض والممانعة الآخرى في البناء نفسه، أي تنزيل الفكرة الطبية في إرسال مضاد حيوي من نفس جنس الميكروب لقتله والقضاء عليه في الساحة الفكرية.

وهو ما خرجت به آخرالدراسات الأمريكية ولعل منها هذا التقرير الذي بين أيدينا، والذي فصّل بشكل عميق و صريح في شكل المسلم الذي يبحث عنه الغرب ويريد قولبة المسلمين وفقه، فالتقرير الذي أصدرته هذه

المؤسسة البحثية التي تدعمها المؤسسة العسكرية الأمريكية – التي تبلغ ميزانيتها السنوية قرابة ١٥٠ مليون دولار – والذي يقع في ٢١٧ صفحة[1]، ينطلق من خبرة أمريكية دامت سبعين سنة في تعاملها مع الإتحاد السوفياتي، ويحاول في جرأة طرح أفكار جديدة للتعامل مع "المسلمين" وتغيير معتقداتهم وثقافتهم من الداخل فقط تحت دعاوى "الاعتدال" بالمفهوم الأمريكي، وتبعاً لذلك يحدد بدقة مدهشة صفات هؤلاء "المعتدلين" المطلوب التعاون معهم. فهم حسب التقرير الليبراليون العلمانيون الموالون للغرب، والذين يؤمنون بالإسلام الصوفي التقليدي، الذي لا يضر مصالح الغرب.

ويذكر التقرير ثلاثة أنواع ممن يسميهم (المعتدلين) في العالم الإسلامي، وهم:

أولاً : العلماني الليبرالي الذي لا يؤمن بدور للدين في الحياة، ويتماشون مع الرؤية الغربية للحياة والعالم، ولا يرى حرجاً في الإندماج التام في المنظومة القيمية للغرب.

ثانياً: "أعداء المشايخ" –كما يسميهم التقرير– ويقصد بهم هنا " الأتاتوركيين " – أنصار العلمانية التركية –.

ثالثاً : الإسلاميون الذين لا يرون مشكلة في تعارض الديمقراطية الغربية مع الإسلام، ويضيف في وصفهم بوضوح هم من : يزورون الأضرحة، والمتصوفون ومن لا يجتهدون.[2]

وورد في التقرير "أنّ عملية تغييردين ليست عملية سهلة إلا أنّها ممكنة "، وأعطى مثالا بالتحول من الإمبراطورية العثمانية إلى دولة علمانيّة مثل ما حدث في تركيا!! و هذا ما جعلهم يفكرون في إيجاد "إسلام" يناسبهم، وذلك من خلال العمل على خنق "الإسلام السّني"، معتمدين في ذلك على أشخاص غير محايدين يعتبرونهم مصادر مهمة للمعلومات من أمثال ستيفن شوارتز، علي الأحمد، وغيرهم كثير ممن يناصبون العداء للتيارت المحافظة في العالم الإسلامي، وخصوصاً تلك التي تتبني مشاريع سياسية تقف على عتبة وجوب إدماج الجانب التشريعي في الإسلام إلى جانب التيقن العقلي.

كما ورد في التقرير الموضوع نفسه فقرة جاء فيها، "إنّ الصوفيّة بما لديها من طقوس شعريّة وموسيقيّة وفلسفيّة، تمثل جسراً للخروج من الاندماج الديني."[3]

لا تكمن خطورة وأهمية هذا التقرير في صراحته ومقترحاته بقدر ما تكمن في مدى المصداقية التي تتحلى بها المؤسسة المصدرة له عند صانعي القرار الامريكي، فقد أشار الدكتور "خفاجي"، مدير العلاقات العامة السابق بمجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية (كير)، إلى أن هذه المؤسسة البحثية (راند) التي تدعمها المؤسسة العسكرية الأمريكية والتي تبلغ ميزانيتها السنوية قرابة ١٥٠ مليون دولار، تتميز تقاريرها بأنها تلقي اهتماما لدي المؤسسة الأمريكية، وأن تقاريرها السابقة خصوصا تقرير ٢٠٠٤، بشأن "إشعال الصراع بين السنة والشيعة"، و"العداء للسعودية"، ظهرت أثارها بالفعل في السياسية الأمريكية ما يظهر خطورة دراستها الأخيرة

---

[1] **Building Moderate Muslim Networks**, by Center for Middle East Public Policy. 26/03/2007.

[2] Ibid, p.44.

[3] Op. Cit, p. 98.

خصوصا أنها لم تلق، على غير المعتاد، رواجا إعلاميا أمريكيا، ما قد يكون أمرا متعمدا لإغفال المسلمين، حسب تعبيره.[٤]

٢–المدارس الصوفية ومجهر التحليل الغربي:

يراهن الكثيرون حاليا على قدرة المتصوفة في التعبير عن الشكل المستقبلي للإسلام، وهذا الرهان وتلك الرؤية الاستراتيجية لا تنبع من فراغ، بل تتأسس على جدل طويل دائر حول ما إذا كان التصوف الإسلامي ينطوي على حلول للأزمات السياسية المعاصرة أم لا؟ وما إن كان فيه ما يقرب بين الإسلام والليبرالية؟ وما إذا كانت قيمه تساهم في التواصل الحضاري ونبذ العنف والتطرف والإرهاب.

ويعول الأمريكيون كثيرا في تصورهم هذا على ما جادت به تجربة النقشبندية في تركيا، حيث

استوعب المتصوفة قيم العلمانية، وطوروا رؤيتهم الدينية لتواكب العصر، وتتماشى مع النهج الديموقراطي على مستوى القيم والإجراءات. كما يعولون على تجربة التصوف مع السياسة في السنغال إحدى أهم الدول التي يتجلى فيها الدور السياسي للمدارس الصوفية، وهي وإن كانت فاعلة بشكل عميق في الساحة السياسية، إلا أنها لا ترى حرجا في الجمع بين مرجعيتها الإسلامية وبين تبني سياسييها وقادتها للفكر العلماني الصرف على الطريقة الفرنسية، إذ يمثل الإنتماء للطريقة وتردد السياسي على حلقات الذكر باستمرار جانبا محوريا في شخصيته، وفي الوقت نفسه يتعايش بل وينافح ويكافح في سبيل فصل المبادئ التشريعية على القيم الروحية والعقدية التي يعيشها، فلا وجود لإسلام سياسي في قناعاته فقط تروحن ومداومة العلاقة بالشيخ والورد.

إن محض النظرة المتيقظة تنبئ صاحبها بأهمية الدور السياسي للطرق الصوفية، سواء كان محدودا خافتا، مثل ما عليه الحال في مصر، أو متسعاً ظاهرا، مثل ما قامت به المهدية في السودان، والسنوسية والقادرية والتيجانية في وسط وغرب أفريقيا، والنقشبندية والمولوية في آسيا الوسطى والقوقاز وشبه القارة الهندية وغيرها. إلا أن المتوجه إليه بالقصد من المشروع الأمريكي والغربي بشكل عام هو ذلك النوع الأول الذي يمثله النموذج المصري بشكل دقيق، حيث يتماهى شيوخ الطرق هناك في المشروع السياسي للسلطة الحاكمة، ولا يكلفون أنفسهم حتى عناء الاستفسار حول القضايا السياسية المستجدة، فقط ولاء مطلق للحاكم ومشاريعه مهما كانت سياسة هذا الحاكم ومهما تعارضت توجهاته مع تصورهم الكوني، وهي قناعة تتجلى بوضوح في العديد من دول العالم الإسلامي كسوريا ومصر و الجزائر، والمغرب، مما يعطي السلط الحاكمة جرعات بقاء طويلة الأمد رغم تسلطها وحقد العامة عليها.

هذا الدور السياسي للتصوف هو الذي اتجهت ولا زالت تتجه إليه أغلب التوصيات والسياسات الغربية التي تحدثنا عنها، فقد أوصت لجنة الكونغرس الخاصة بالحريات الدينية العديد من المرات بأن تقوم الدول العربية بتشجيع الحركات الصوفية. فالزهد في الدنيا والانصراف عنها وعن عالم السياسة يضعف ولا شك صلابة مقاومة الاستعمار الغربي. ومن ثم فعداء الغرب للإسلام ليس عداء في المطلق، وإنما هو عداء للإسلام المقاوم،

---

[٤] وكالة الأنباء الإسلامية، **هيئة راند: استراتيجية جديدة للمواجهة مع العالم الإسلامي**، www.islamicnews.net ، ٠١/ ١١/ ٢٠٠٨.

ولأي شكل من أشكال المقاومة تتصدى لمحاولة الغرب تحويل العالم إلى مادة استعمالية. هذه التوصيف الدقيق لأبعاد الموقف السياسي الغربي من حركات التصوف -الذي يجليه الدكتور عبد الوهاب المسيري- ليس بعيدا عن الحقائق القائمة اليوم على واقع الحراك الدعوي للحركات الصوفية والظهور والاهتمام الإعلامي بهم عبر وسائل الإعلام المختلفة والقنوات الفضائية الرسمية وغير الرسمية. ولفهم المزيد من طبيعة العلاقات القائمة بين الغرب وحركات التصوف نذكر هنا بمؤتمر **"فهم الصوفية والدور الذي ستلعبه في رسم السياسة الأمريكية"**، والذي عقد في مركز "نيكسون" بالولايات المتحدة الأمريكية، في ٢٠٠٣/١٠/٢٤م أي بعد عامين من أحداث سبتمبر وعقب سقوط بغداد بأشهر قليلة، وكان الهدف من هذا المؤتمر حسب إعلان المنظمين له هو تقديم "الإسلام الوسطي" أو "الإسلام الثقافي" لصانعي القرار والأكاديميين الأمريكيين**!!** وكان من أبرز المشاركين في المؤتمر، الذي أقيم برعاية وزارة الدفاع الأمريكية، بيرنارد لويس، أستاذ دراسات الشرق الأدنى بجامعة برينستون بولاية نيوجيرسي[٥] .

يقول الكاتب ستيفن شوارتز، صاحب كتاب "وجها الإسلام: الأصولية السعودية ودورها في الإرهاب" **"Two Faces of Islam: The House of Sa'ud from Tradition to Terror"**، في مقال بعنوان "**التعرف على الصوفية**": "لا تؤكد هذه التعاليم-الصوفية- على الحوار داخل الإسلام وعلى الفصل بين السلطة الروحية وسلطة رجال الدين وعلى التعليم باللغة المحلية فحسب، بل إنها تحترم أيضاً جميع المؤمنين سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهود أو هندوسيين أو بوذيين أو من ديانات أخرى. وتشدد الصوفية علاوة على ذلك على التزامها باللطف والتفاعل والتعاون المتبادل بين المؤمنين بغض النظر عن مذاهبهم"[٦]. ويسرد الكاتب أمثلة متعددة على تسامح الصوفية مع العقائد غير الإسلامية بالقول: "إن تاريخ الصوفية مليء بأمثلة عن التلاحم بين العقائد على عكس النزعة الانفصالية المتشددة التي تميز الأصولية الإسلامية. يشارك الصوفيون البلقان والأتراك المسيحيين في الأماكن المقدسة. ومازال الصوفيون في آسيا الوسطي يحتفظون بالتقاليد الموروثة عن الشامان والبوذيين.كما تكيّف الصوفيون في أفريقيا الغربية الناطقة بالفرنسية مع العادات المحلية، وكذلك الأمر بالنسبة للصوفيين في تركستان الشرقية الذين اقتبسوا من التعاليم الصينية مثل الكونفوشية والطاوية إضافة إلى تعلمهم فنون القتال دفاعاً عن النفس. لقد قبل الصوفيون في البلقان وتركيا ووسط آسيا العلمانية كمتراس ضد التعصب الديني واحتكار رجال الدين للأفكار الدينية"[٧].

والذي يلفت الانتباه في هذا النقل الأخير هو تلك الإشارات المتكررة لقضية التسامح الذي يتحلى به المتصوفة، بغض الطرف عن حدود ذلك التسامح، فحسب شوارتز فإن سماحة المبادئ الصوفية كامنة في تساهلها مع تعاليم الأديان الأخرى ومرونة تعاملها معها، بل ودمجها في منظوماتها العبادية والتربوية، وهو أمر لا

---

[٥] انظر: عبد الوهاب المسيري، **الإسلام والغرب**، مقال على قسم المعرفة في 'الجزيرة نت'، في ٢٠٠٦/٥/١٧م. وانظر أيضا: انظر: جهاد عودة و عمّار علي حسن، **كراسات إستراتيجية**، السنة الثانية عشرة، ٢٠٠٢م، العدد ١٢٠، ص٧٨.

[6] Stephen Schwartz, **Identification of Islam ,** in The Weekly Standard. ٠٧/٠٢/٢٠٠٥ .

[7] Ibid,p.3.

يخفى ما فيه من تمييع لمبادئ الإسلام، وحلحلة خصوصياته واحدة تلو الأخرى، كي يسهل التعامل مع البقايا بسهولة ومرو نة، ولم يقف شوارتز –الذي يعد أحد المستشاريين الدوليين في هذه القضايا– عند هذا فقط بل وطرح نموذجا من النماذج الصوفية المرغوب فيها، والتي بات الغرب يعمل من أجلها صراحة وبلا مواربة. هذا النموذج مستمد من تعايش الصوفية في منطقة كردستان مع واقع الاحتلال الأمريكي للعراق، ودعمهم دعماً فاعلاً للتحالف العراقي مع الولايات المتحدة الأمريكية.[8] ويبدوا القصد الذي أشرنا إليه واضحا في العديد من كتابات شوارتز، إذ لم يكتفي عند حدود الدور السياسي المأمول من المتصوفة بل ونجده راح يثني على نماذج من الفرق الصوفية التي باتت تتعدى المحظور الديني الصراح، مما يعني التقدم أكثر في مسيرة تفكيك بنية الفكرة الإسلامية في شتى تجلياتها، فقد قال في مورد الإعجاب والثناء: 'قد تلعب التقاليد الروحية في الأمكنة التي تهيمن عليهاالصوفية دوراً إيجابياً في تعزيز القيم المدنية التي تفضي إلى نشوء الديمقراطية. فمثلاً أعلن صوفيو البيكتاشي الذين يعيشون على الأراضي الألبانية، والذين يبلغ عددهم ٣ ملايين عضو و ينتشرون من كوسوفو إلى شمال اليونان بجرأة أنهم 'أكثر المسلمين تقدماً في العالم"، كما نبهني إلى ذلك بانفعال بابا طاهر أميني زعيمهم في مقدونيا عام ٢٠٠٣م. و يشتهر هؤلاء خاصة بالتزامهم بحقوق المرأة والتعليم العام وهم الطريقة الصوفية الوحيدة التي تسمح بشرب الكحول"[9]. وبعد عرضه الموسع لما تستحسنه الايديولوجيا الغربية من التصوف يتجرد شوارتز في تقديم جملة من النصائح للساسة الأمريكيينمشيرا إلى أنه من الواضح جداً على الأمريكيين أن يتعلموا المزيد عن الصوفية وأن يتعاملوا مع شيوخها ومريديها وأن يتعرفوا على ميولها الأساسية. إذ هذا ليس صعباً، حيث يسهل العثور على بيوت اجتماع الطرق الصوفية في كل دولة إسلامية عدا المملكة العربية السعودية. و يجب على أعضاء السلك الدبلوماسي الأمريكي في المدن الإسلامية من بريشتينا في كوسوفو إلى كشغار في غرب الصين ومن فاس في المغرب إلى عاصمة إندونيسيا جاكرتا أن يضعوا الصوفيين المحليين على قائمة زياراتهم الدورية. يجب أن ينتهز الطلاب الأمريكيون ورجال الأعمال وعمال الإغاثة والسائحون فرص التعرف على الصوفيين. و الأهم من ذلك، أن أي شخص داخل أو خارج الحكومة يشغل موقعاً يسمح له بالتأثير على مناقشة ورسم سياسة الولايات المتحدة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط يمكنه أن يستفيد من فهم هذا التقليد الفطري من التسامح الإسلامي، ويحذر في مقابل هذه النصائح من إظهار الدعم الأجنبي للحركات الصوفية[10].

وينخرط برنارد لويس وهو رئيس منتدى الشرق الأوسط بالولايات المتحدة وعميد مستشاري وزارة الدفاع والخارجية الأمريكية في شؤون الإسلام والعالم الإسلامي، بكل ما يحمله من ثقل فكري في هذا المشروع، إذ يعد أن تفاقم تأثير الحركات الأصولية الدينية في أواخر السبعينيات والثمانينيات، قضى نهائياً على أفكار غربيين كانوا يعتقدوأن التصوف الإسلامي السياسي يحُدُّ من تأثير الإسلام السياسي؛ فمقاومة السلطة

[8] Op, Cit. p.3.

[9] Ibid, p. 4.

[10] Op, Cit, p.4

السياسية من ملوطئة وأفراعنة كما يؤكد دانيال بايبس و َ ج َ ـد َ له الأصوليون تفسيراً في القانون الإسلامي، ولذا فإن الغرب يسعى إلى مصالحة التصوف الإسلامي ودعمه لكي يستطيع ملء الساحة الدينية والسياسية وفق ضوابط فصل الدين عن الحياة، وإقصائه نهائياً عن قضايا السياسة والاقتصاد، وبالطريقة نفسها التي استُخدمت في تهميش المسيحية في أوروبا والولايات المتحدة[11].

وقد تتعددت هذه التقارير وغيرها للإشارة والتنبيه إلى البعد الإستراتيجي الذي يمكن أن تلعبه الحركات الصوفية في تمرير المشاريع السياسية والثقافية الغربية إلى الواقع الإسلامي، وقد كان منها إضافة إلى ما ذكرنا تقرير نشرته مجلة «يو إس نيوز آند وورلد ريبورت» الأمريكية بعنوان "عقول وقلوب ودولارات" نشر عام ٢٠٠٥م يقول التقرير في إحدى فقراته: "يعتقد الإستراتيجيون الأمريكيون بشكل متزايد أن الحركة الصوفية بأفرعها العالمية قد تكون ًواحداأفضل الأسلحة، وبينما لا يستطيع الرسميون الأمريكيون أن يُقَرِّبُوا الصوفية علناً، بسبب فصل الدين عن الدولة في الدستور الأمريكي، فإنهم يدفعون علناً باتجاه تعزيز العلاقة مع الحركة الصوفية...، ومن بين البنود المقترحة هنا: استخدام المعونة الأمريكية لترميم المزارات الصوفية في الخارج والحفاظ على مخطوطاتها الكلاسيكية التي تعود إلى القرون الوسطى وترجمتها، ودفع الحكومات لتشجيع نهضة صوفية في بلادها"[12].

ولعل ما ورد في التقرير الأخير وملاذكره شوارتز وبيرنارد بات يجد له صداً في ما يصدر عن الساسة الغربيين من تصريحات ومن تحركات، ففي في عام٢٠٠١م أُطلقت مجموعة من الخطابات السياسية حول هذا الموضوع؛ فقد شرح رئيس الوزراء البريطاني توني بلير المقصود بهذا في خطاب موجه للزعماء والمسؤولين بالدول الإسلامية، دعاهم فيه إلى أن يعملوا جاهدين على أن يهيمن الإسلام (العادي أو الرئيسي) استخدم لفظ (main stream) بحيث يخضع له جميع المسلمين في شتى أنحاء العالم، والفكرة نفسها عبر عنها وزير الخارجية الأمريكي كولن باول في شهر نوفمبر٢٠٠١م في خطاب ألقاه بجامعة لويسفيل بولاية كنتاكي، حيث أشار إلى تبلور رؤية أمريكية للمجتمعات الإسلامية تقوم على أساس من قيم معينة تمس التكوين الثقافي والسياسي والعقدي لتلك المجتمعات.[13]

وفي ١٦ شوال ١٤٢٦ حضر مولد البدوي السفير الامريكي في القاهرة معلناً عن إعجابه الشديد بعالم لتصوف الإسلامي، لافتاً إلى ما تنطوي عليه الصوفية من تسامح، وما تجسده من قيم ومبادئ إسلامية رفيعة مثل الحق والخير والجمال[14] وانطلقت الجهود على كل الأصعدة بعد هذا الزيارة في تأسيس أول قناة فضائية

---

[11] ينظر: عدنان أبو زيد علي، **الديمقراطية بين واقع عربي وتأويل غربي**، جريدة الزمان- العدد ١٦٣٣، بتاريخ (١٢/١٠/٢٠٠٣م)

[12]By *David E. Kaplan*, **Hearts, Minds, and Dollars**, in Us news and world Report. www.usnews.com/usnews/news/articles/050425. 25/04/2005.

[13] ينظر: علي أحمد الفيومي، **الإسلام المعدّل بعد١١ سبتمبر ٢٠٠١م**، جريدة الأهرام، بتاريخ ١٤/٠١/٢٠٠٢م، ص ١٨.
وينظر أيضا: جريدة السفير اللبنانية في ٢٢/١٢/٢٠٠١م، ص ٢٣.

[14] ينظر جريدة الخليج «الإماراتية» العدد (٩٦٨٠)، بتاريخ: ١٩ نوفمبر ٢٠٠٥. وانظر جريدة الشرق الاوسط الصادرة في ١٨ نوفمبر ٢٠٠٥م.

صوفية بدعم من الحكومتين الأمريكية والمصرية توكل إليها مهمة نشر القيم الصوفية المتشبعة بقيم التسامح والإخاء.

في خضم ماذكرنا وما لم نذكر من الأحداث والتصريحات التي باتت تتوالى حول الموضوع، يحسن بالمهتمين إعادة النظر في الكثير من الأطر المتجلية في الساحة الفكرية والتي تعتمد عليها الإتجاهات الثلاثة –المشار إليها في بداية البحث– في مواقفها من قضية التصوف. ولعل المراجعة المدققة لتراث المدارس الصوفية أقول تراث ولا أعني هنا الوقائع والمواقف بل أعني التراث العلمي المكتوب تمكننا من بت وفض العديد من القضايا العالقة في الموضوع. وتجدر هنا الإشارة إلى مبدأ يجب مراعاته عند الحديث عن التصوف بشكل عام، وهو تعدد التوجهات والتصورات الكونية للمدارس الصوفية بل وتضاربها وتناقضها في بعض الأحيان. هذا من جهة ومن جهة ثانية يرسل لنا البحث التاريخي إشارات عميقة إلى وجوب التأمل في تراث وأفعال الأولين في هذا العلم أي الأجيال المؤسسة نظرا لكونها تمثل المرجعية الأساس في فهم الفعل والسلوك الصوفي، وعدم الاكتفاء في الحكم على القضايا من خلال تمظهرات السلوك الصوفي في العصور التالية، أي أنه ليس من المنطقي أن نحكم على واقع التصوف الآن من خلال تصرفات العينات التي تنتمي إليه أو التي تدعي ذلك، فالمسألة فيها مافيها من التعارض والتضارب و قد حذّر علماء التصوف قديماً وحديثاً من هذه المغالطة كالتاج السبكي حين قال: "إذا علمت أن خاصة الخلق هم الصوفية فاعلم أنهم قد تشبه بهم أقوام ليسوا منهم فأوجب تشبه أولاء سوء الظن"[١٥]، ويورد الإمام محمد عبده(ت١٩٠٥م)، كلاما في هذا السياق، إذ يقول: "قد اشتبه على بعض الباحثين في تاريخ الإسلام وما حدث فيه من البدع والعادات التي شوّهت جماله السبب في سقوط المسلمين في الجهل فظنوا أن التصوف من أقوى الأسباب وليس الأمر كما ظنوا..."[١٦]. فالمطلع على تراث القوم يجد أن التوجه الألس والذي ساد وغلب في شتى أنحاء العالم الإسلامي، هو ذلك التوجه الذي وحّد رؤيته الكونية وفق تصور توحيدي عملي لم يفصل بين جوانب الحياة في شيء أي أنه لم يفصل العقيدة والإيمان عن العمل والحراك في هذه الدنيا والذي ينطوي تحته الحراك والعمل السياسي، وإلا لكان الأمر على غير الشاكلة التي كان عليها، ولا أدل على هذا أن نشأة التصوف أساسا ارتبطت بنوع من المعارضة الصامتة للواقع السياسي والاجتماعي، حين انعزل الصلحاء عن مجالس الساسة، وانزووا في المساجد والثغور والرباطات –بعد ثبوت عجزهم عن التغيير– كنوع من إنكار المنكر الذي باتت السلط السياسية تكرسه أو على الأقل تسكت عنه.

فالمسألة تحتاج كما أشرنا إلى تدقيق وتمحيص، وسنولي في النقاط التالية أهمية إلى بعض تلك الجوانب وإن كنا سنركز على الجانب الواقعي التاريخي لا على التراث الفكري كونه يخرج عن دائرة الإختصاص، ونرى في هذا المقام –والله أعلم– أن العودة إلى التاريخ من شأنها أن تزيل العديد من الغبش في تصوراتنا للتصوف من خلال الحكم عليه من إنجازاته وإخفاقاته، وهي –برأينا– مسألة مهمة نظرا لما يمثله التاريخ من سجل يشهد على صدقية الأطر الفكرية والقيمية التي سطرته. نقصد بذلك أن تاريخ المدارس الصوفية من شأنه أن يجيبنا على

---

[١٥] الإمام السبكي، **طبقات الشافعية**، (هجر للطباعة والنشر، العراق، ١٩٩٣) ج١٠، ص٢٨٣.

[١٦] محمد عبده، **الأعمال الكاملة**، جمع: محمد عمارة،(المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٢)،ج٣، ص٥٣٠.

سؤال هل حقيقة أن التصوف يمثل روح التخاذل والإنزواء، وأن السلبية طبعت كافة تاريخه وتراثه، أم أن الأمر على العكس. ونحاول هنا أن نسترجع الحدث التاريخي في سياقه لمحاولة الإجابة على هذا السؤال من خلال تتبع الحالتين النقيضتين اللتين وردتا في السؤال الفارط.

٣- المسار الفعال للفعل السياسي والتحقق الصوفي:

جمع المتصوفة في العديد من مراحل تاريخهم بين نوعي الجهاد اللذين وردا في الحديث النبوي الشريف[١٧] نظراً للترابط الوثيق بينهما فالجهاد الأكبر تهذيب النفس وتوجيهها تجاه الخير وهي بذلك تستعد لملاقاة العدو ومنازلته. أما النفوس التي انحرفت وسارت مع الهوى فإنها لا تستطيع أن تواجه العدو ولا أن تصارع المعتدين،[١٨] وقد كانت الظروف المحيطة دافعاً قوياً للتركيز على طريق الحق والهداية. ويوضِّح ذلك ابن خلدون عند كلامه على نشوء التصوف قائلاً: "وكان ذلك عامّاً في الصحابة والسلف فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختصّ المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة"[١٩] فقد انتشرت نزاعات ملأت تاريخ العصرين الأموي والعباسي وغرق بعضهم في ملذات الدنيا وكان لهذا الفعل رد فعل من العُبّاد والزهّاد فسلك قسم منهم طريق الوعظ والتذكير بالحياة الأخرى واندفع القسم الآخر للمرابطة في العواصم والثغور التي وجدوا فيها راحةً لنفوسهم وتخليصاً من مشاهد تطاحن الأحزاب والفتن والتكالب على الدنيا. وقد تسنى لهم في هذه الثغور ممارسة رياضاتهم وجهادهم فأخذوا يستشعرون السعادة والرضا. وهم بذلك كما يقول: د.شوقي ضيف يصححون فكرة شاعت عن زهّاد المسلمين وعبّادهم أنهم كانوا سلبيين ظانين أن زهد المسلمين كان يفصلهم عن الحياة وهو ظنٌ واهمٌ فإنَّ زهّاد المسلمين لم ينفصلوا عن الحياة بل كانوا يتصلون بها وكانوا يلبون دائماً نداء الوطن ويتقدمون الصفوف المجاهدة طلباً للاستشهاد في سبيل الله[٢٠].

وعلى عداوة ابن الجوزي للتصوف ورجاله إلا أنه يفرفصلاً خاصاً في كتابه (صفوة الصفوة) للزهّاد والصوفية الأوائل الذين رابطوا في العواصم والثغور في القرن الثاني للهجرة منهم: أحمد بن عاصم الأنطاكي وكان يقال له (جاسوس القلوب) لحدة فراسته ويصفه بأنه من متقدمي مشائخ الثغور ومنهم أبو يوسف الغسولي الذي كان يغزو مع الناس بلاد الروم وهناك كثيرون أمثال أبي إسحق الفزاري وعيسى بن أبي إسحق السبيعي ويوسف بن إسباط وأبي معاوية الأسود (ت ١٩٩هـ)[٢١] .

---

[١٧] نص الحديث هو " رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر" رواه الديلمي عن جابر (رض)، ينظر: **كشف الخفاء** للعجلوني ج١ ص٤٢٤.

[١٨] أحمد شلبي، **الجهاد في التفكير الإسلامي**، سلسلة دراسات في الحضارة الإسلامية،(مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٦٨)،ص١٠.

[١٩] ابن خلدون، **المقدمة**، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٤، ١٩٨٩)، ص٤٦٧.

[٢٠] شوقي ضيف، **تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)** ،(دار المعارف، مصر، ١٩٧٢)، ص٤٠٣.

[٢١] ابن الجوزي، **صفوة الصفوة**، تحقيق: محمود فاخوري، (بيروت، دار المعارف، ط٣، ١٩٨٥) ج٤، ص٢٥٥.

ومن أقران آنفي الذكر عبد الله بن المبارك (ت ١٨١هـ) أورد الخطيب البغدادي في شأنه: "وكان من الربانيين في العلم ومن المذكورين بالزهد.. خرج من بغداد يريد المصيصة – ثغر من ثغور الروم – فصحبه الصوفية..."[٢٢]. ويورد أصحاب التراجم عنه أنه كان "كثير الانقطاع محباً للخلوة"[٢٣]. وكان لا يخرج إلا إلى حج أو جهاد وقيل له ألا تستوحش فقال: "كيف أستوحش وأنا مع النبيε وأصحابه".[٢٤]وقد صُدرت تراجم الصوفية باسمه، وفي حلية الأولياء سُئل ابن المبارك: من الناس؟ فقال العلماء. وقيل له: مَن الملك؟ قال الزُّهَّاد. وهو أول من صنَّف في الجهاد وله كتاب الزهد والرقائق.

ويعدّ إبراهيم بن أدهم إمام المتصوفين الروحانيين يذكره ابن عساكر بأنه كان فارساً شجاعاً ومقاتلاً باسلاً رابط في الثغور وخاض المعارك على البيزنطيين العدو الرئيسي للدولة الإسلامية الناشئة. وقد أثنى على ورعه وزهده الإمام أحمد بن حنبل والأوزاعي وسفيان الثوري وغيرهم واختلف في وفاته والأصح ما ذكره ابن كثير أنه توفي وهو مرابط في جزيرة من جزائر بحر الروم سنة (١٦٢هـ)[٢٥]وقد صحب إبراهيم وأخذ عنه الطريق شقيق البلخي. ويترجم لنا صاحب شذرات الذهب عن علم آخر من أعلام الصوفية المجاهدين وهو حاتم الأصم واصفاً إياه "القدوة الرباني كان يقال له لقمان هذه الأمة توفي وهو مرابط على رأس سروَد على جبل فوق واشجرد" عام ٢٣٧هـ[٢٦] ويروي ابن العديم أنه في القرن الثالث الهجري تجمع الصوفية من كل صوب في ثغور الشام إذ وفدوا إلى هذه الثغور جهاداً في سبيل الله للوقوف في وجه البيزنطيين وأشهرهم أبو القاسم القحطبي الصوفي وأبو القاسم الأبّار وأبو القاسم الملطي الصوفي الذي صحب الجنيد البغدادي[٢٧].

هذه بعض الأمثلة عن الرعيل الأول من الصوفية المجاهدين وإذا كان المجال لا يتسع هنا للاستكثار من الشواهد فهي موجودة في بطون أمهات الكتب العربية. وبالجملة فلم يقعد الزهد والورع الصوفية عن الجهاد في سبيل الله والتفتيش عن مرضاته والشوق إلى لقائه. وقد لخص لنا عبد الوهاب الشعراني توفي (٩٧٣هـ) مبادئ الصوفية في الجهاد قائلاً: (أُخذ علينا العهد من رسول الله ε إذا دخلنا ثغراً من ثغور المجاهدين أن ننوي المرابطة مدة إقامتنا ولو لم يكن هناك عدو لاحتمال أن يحدث عدو) (أُخِذ علينا العهد العام من رسول الله εأن نسأل ربنا أن نموت شهداء في سبيل الله لا على فرشنا فإن لم يحصل لنا مباشرة ذلك حصل لنا النية الصالحة... وحصل

---

[٢٢] الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، (دمشق، دار الفكر،دت)، ج١٠، ص١٥٧.

[٢٣] ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، تحقيق: إحسان عباس. (بيروت، دار التراث العربي، ١٩٧٧)، ج٣، ص٣٢.

[٢٤] البغدادي، المرجع السابق، ج١٠، ص ١٥٤.

[٢٥] ابن كثير، **البداية والنهاية**، (بيروت، دار المعارف، ١٩٦٦)،ج١٠، ص٤٤.

[٢٦] ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، (بيروت، دار المسيرة)، ج٨، ص٨٧.

[٢٧] ابن العديم، **بغية الطلب في تاريخ حلب**، تحقيق: سهيل زكار، (دمشق، دار الفكر، ١٩٨٨)، ج١٠، ص٤٥٩١.

لأجركاملاً)[28]. وصف ابن سينا الصوفي قائلاً : "العارف شجاع كيف لا وهو بمعزل عن تقية الموت. وجواد و كيف لا وهو بمعزل عن محبة الباطل وصفّاح وكيف لا ونفسه أكبر من أن تجرحها ذلة بشر"[29].

وجدير بالذكر أنه عندما ظهر التصوف ظهرت فيه بالإضافة إلى فضيلة التقوى مجموعة من الفضائل الأخرى المستمدة من الفتوة وهي فكرة الإيثار والتضحية واعتبرها المتصوفة من أوائل مبادئهم، حتى قال أحدهم لا يكون الصوفي كاملاً إلا إذا تفتى ويقول أحمد أمين: "أدخل الصوفية الفتوة في مذهبهم وصبغوها بصبغتهم وحملها على الحق مهما استتبع ذلك من مكاره[30].

ومع تضاعف نشاط الطرق الصوفية في عهد الاضطراب الذي خضع له العالم الإسلامي في العصور الوسطى تشكلت "الفتوات". في آسيا الصغرى وفي البلاد العربية واتضح هدف هذه الفتوات بالإعلان عن الجهاد الديني المقدس على التتر الصليبيين وأعداء الدين داخل البلاد وخارجها، حتى لُقِّب الصوفية فتيان الثغور. ولأن إقامتهم في هذه الثغور كانت تطول في بعض الأوقات عملوا متكاتفين على إقامة بيوتات صغيرة أشبه ما تكون بمخافر الحدود اليوم وكانت هذه نواة للربط التي انتشرت بكثرة فيما بعد للعبادة ورصد تحركات العدو. ذكر المقريزي في هذا المقام(الر ُ بط: جمع رباط وهو دار يسكنها أهل طريق الله وهو بيت الصوفية ومنزلهم والمرابطة ملازمة ثغر العدو ولكل ثغر يدفع أهله عمّ ن وراءهم ر ُ باط. فالمجاهد المرابط يدفع عمن وراءه والمقيم في الربـــاط علـــى طاعـــة الله يـــدفع بدعائـــه الـــبلاء عـــن العبـــاد والـــبلاد"[31].

ولم يقتصر وجود الر ُ بط على البرّ فإن صاحب خطط الشام يذكر أنه كان على امتداد سواحل الشام رباطات للنيل من الأعداء إن قدموا بحراً فأهل دمشق يرابطون في بيروت وأهل حمص في طرابلس وأهل القدس في يافا فبنوا المنيات وكلفوا حرساً تراقب قدوم العدو فإذا كان الوقت ليلاً أوقدت منارة ذلك الرباط وإن كان نهاراً دخنوا وقد ثبتت منارات متسلسلة فلا يكون ساعة إلا وقد حصل النفير بين الناس استعداداً لمنازلة العدو. وقد أحصى لنا الأربلّي (ت ٧٢٦هـ) عدد الربط في دمشق وخارجها بواحد وعشرين رباطاً آخرها أنشأها ابن القلانسي بجبل الصالحية وتم بناؤه سنة ٧٢٠هـ[32].

ويورد الدارسون كلام الرحالة المقدسي:" أنه في أواخر القرن الرابع الهجري كان في اسبيجاب في ما وراء النهر على حافة الحرب مع الترك ألف وسبعمائة رباط بينما كان في بيكند –ثغر بين بخارى وسمر قند– ألف رباط"[33]وإذا كان هذا العدد الضخم من الرباطات في ثغرين من ثغور الحرب فما بالنا بما كان في بقية الثغور؟ومن جليل أعمال الصوفية وآثارهم الحسنة في الأمة الإسلامية أن الملوك والأمراء متى قصدوا الجهاد كان

---

[28] عبد الوهاب الشعراني، **لواقح الأنوار القدسية**،(حلب، دار القلم العربي، ١٩٩١)، ص١٤٦.

[29] عبد الحليم محمود، **التصوف عند ابن سينا**، القاهرة، مكتبة دار العروبة،د.ت)، ص٤٥ .

[30]أحمد أمين، **الصعلكة والفتوة في الإسلام**، (مصر، دار المعارف، ١٩٥٢)، ص٥٧.

[31]المقريزي، **الخطط والآثار**، (بيروت، دار صادر، د.ت) ج٢ ،ص٤٢٧.

[32]الحسن الأربلي، **مدارس وجوامعها وربطها وحماماتها**، (دمشق، مطبعة الترقي)، ص١٥.

[33]شوقي ضيف ، **عصر الدول والإمارات** (مصر، دار المعارف، ١٩٨٠)، ص٥١٥.

مشايخهم يحرضون أتباعهم للمشاركة في رد العدوان وكان هؤلاء المريدون يسارعون بذلك لعظيم اعتقادهم وانقيادهم فيكون ذلك سبباً للظفر والنصر. ففي مصر يسطر لنا الشيخ أبو الحسن الشاذلي (ت٦٥٦هـ) مثالاً رائعاً عن مقاومة الصوفية للغزاة،وتذكر كتب التاريخ مشاركته في معركة المنصورة سنة (٦٤٧هـ) وقد التف حوله أتباعه[٣٤]. ومن أبرز تلامذة الشاذلي أبو العباس المرسي قال عنه ابن تغري بردي "الإمام العارف قطب زمانه... وكان من جملة الشهود بالثغر..."[٣٥].

وإن دور الإمام العز بن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ). في التحضير لمعركة "عين جالوت" (سنة ٦٥٨هـ) معلوم للقاصي والداني فلم يمنعه تقدمه في السن من المشاركة في الاجتماعات مع السلطان وقادة الأمة وحثهم على ملاقاة التتار، ولا يخفى على أحد موقفه من السلطة الحاكمة حين تنكرت للرعية وساد ظلمها وبطشها بهم. ولا شك في نسبة العز إلى المدرسة الصوفية، فنصوصه العديدة وكلام مترجميه يقضي بذلك. فقد حكى السيوطي أن: (سلطان العلماء) "لبس خرقة التصوف من الشهاب السهروردي"[٣٦].

ويذكر أحمد أمين أن الشيخ محي الدين بن عربي الصوفي المشهور (ت ٦٣٨هـ)هو الذي اعتدنا أن يُنسب إليه ما نبذ من أفكار ومواقف المدرسة الصوفية، فقد أُثر عنه أنه كان خلال الحروب الصليبية يحرض المسلمين على الجهاد ومقاومة الغزاة الصليبيين[٣٧]،ومن وصاياه قوله: "وعليك بالجهاد الأكبر وهو جهاد هواك فإنك إذا جاهدت نفسك هذا الجهاد خلص لك الجهاد الآخر في الأعداء الذي إن قتلت فيه كنت من الشهداء الأحياء الذين عند ربهم يرزقون... واجهد أن ترمي بسهم في سبيل الله واحذر إن لم تغز أن لا تحدِّث نفسك بالغزو..."[٣٨].وعلى الرغم من غوص ابن عربي في دقائق علم التصوف فإنه لم يقطع صلته مع قوّاد الدولة الكبار ومنهم الملك المظفر شهاب الدين غازي صاحب حلب (ت ٦١٣هـ) الذي كان مريداً للشيخ وحصل منه على إجازة في العلم، وقد أثنى عليه ابن عربي في بعض كتاباته بقوله: "ما رفعت إليه حاجة من حوائج الناس إلا سارع في قضائها من فوره من غير توقف كانت ما كانت"[٣٩]، وتوقفنا هذه النقولات الأخيرة على صورة مخالفة تماما لما يتصوره البعض عن ابن عربي من ركونه وخنوعه إبان حروب الصليبيين في الشام، ولا نحتاج للتذكير حول قيمة هذا الرجل في الفكر الصوفي على الرغم مما يؤخذ عليه في بعض الأحيان.

ومما يلفت الانتباه في هذا المقام أن الظاهرة التي سادت العصر الأيوبي الذي يعد من أعز فترات التاريخ الإسلامي، هي انتشار الصوفية وطغيانها وتملكها مشاعر العامة وعواطفهم حتى بدت مظهراً دينياً خالصاً. ويفسر بعضهم أن ذلك يعود إلى كثرة الحروب والفتن وإلى نشوء مذاهب دينية تحوي بعض مبادئ الفوضى

---

[٣٤] عبد الحليم محمود، **أبو الحسن الشاذلي الصوفي المجاهد والعارف بالله** (سلسلة أعلام العرب) (القاهرة، ١٩٦٧)، ص٦٠

[٣٥] ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، (مصر، وزارة الثقافة المصرية) ج٧، ص٣٧١.

[٣٦] السيوطي، **حسن المحاضرة**،(مصر، مطبعة عيسى البابي الحلبي،١٩٦٧) ج١، ص٣١٥.

[٣٧] أحمد أمين، **ظهر الإسلام**، (القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٦٦)، ج٤، ص٢٢٢.

[٣٨] ابن عربي، **الوصايا**، (دمشق، مطبعة كرم، ١٩٥٨)، ص٤٩.

[٣٩] ابن عربي، **المصدر نفسه**، ص ٢٥٧.

والهدم هذا فضلاً عن بدء تسرب جحافل الصليبيين إلى البلاد الإسلامية فوجد العامة في التصوف الملجأ والمخلّص مما هم فيه من المحن والهموم، ولقد عظم اعتقادهم في مشايخ الصوفية وخصوصاً عندما بدأ الضعف يدب في جسم الخلافة العباسية ومن هؤلاء على سبيل المثال: علي بن الحسين الواعظ. فقد أشار ابن كثير عند حديثه عن حوادث سنة ٥٤٩هـ إلى الدور الكبير الذي قام به هذا الصوفي في الحث على تطهير البلاد من الصليبيين وقد توافد إلى رباطه المئات و أصبح ما يشبه ثكنة عسكرية. وكذلك كانت هناك علاقة وثيقة بين حكام آل زنكي والأيوبيين وبين رجالات التصوف واتخذوا منهم خير سند في حروبهم مع الصليبيين فكان هؤلاء يشحذون همم الناس، ويستثيرونهم للجهاد. وقد شجع نور الدين محمود زنكي رجل الدولة الأيوبية الأول (ت٥٦٩هـ) التصوف ورجاله عن عقيدة ورغبة حقيقية، وهو من هو في تاريخ الإسلام ويكفيه أنه مهد كل السبل لبداية عصر صلاح الدين الأيوبي. فقد قال أبو شامة: "وكان يحضر مشايخهم- المتصوفة- عنده ويقربهم ويدنيهم ويبسطهم ويتواضع لهم فإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مذ تقع عينه عليه ويعتنقه ويجلسه معه على سجادته ويقبل عليه بحديثه[٤٠]. وكان يقول: "هؤلاء جند الله وبدعائهم ننتصر على الأعداء". ويصف لنا ابن خلّكان تصوف وزهد نور الدين أنه كان ملكاً عابداً زاهداً ورعاً مجاهداً في سبيل الله وقد لامه بعض أصحابه على تكريمه للصوفية فغضب غضباً شديداً وقال: "إني لا أرجو النصر إلا بأولئك... كيف أقطع صلات قوم يقاتلون بسهام لا تخطئ..."[٤١]. وتذكر كتب التاريخ أنه كان متقشفاً وقد يقترض أحياناً المال جاعلاً من الجهاد وسحق الصليبيين كل مسوّغ وجوده، وكما يقول أحد المستشرقين المنصفين "نذر نور الدين حياته للحرب المقدسة متفانياً فيها بحماسة الصوفي العنيدة"[٤٢]. وحسبه ما قاله عنه ابن الأثير لم يكن بعد عمر بن عبد العزيز مثل الملك نور الدين[٤٣]. وقد سار صلاح الدين الأيوبي (ت ٥٨٩هـ) على الدرب نفسه الذي سلكه نور الدين فقبل أن يشرع بتخليص البلاد من براثن الصليبيين بقي اثنتي عشرة سنة (٥٧٠-٥٨٢هـ) يعمل من أجل تحقيق الوحدة وإعداد قوة الإسلام المادية والروحية فزاد من إنشاء الربط والخوانق والزوايا وجعل منها مدارس عسكرية وتربوية. يصف لنا ابن شداد "سكرتيره وقاضيه" شخصية صلاح الدين بقوله: "كان رحمه الله حسن العقيدة كثير الذكر لله تعالى قد أخذ عقيدته على الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم. وقد جمع له الشيخ "أبو المعالي النيسابوري المنعوت بالقطب"[٤٤]. عقيدة سليمة في علم الظاهر والباطن وقد ورد عنه أنه خلال المعارك كان يصحب علماء الصوفية لأخذ الرأي والمشورة فضلاً على أن وجودهم يعتبر

---

[٤٠] ابن قاضي شهبة، **الكواكب الدرية في السيرة الفورية**، تحقيق: محمود زايد،(بيروت،دار الكتاب الجديد، ١٩٧١)، ص٣٨.

[٤١] ابن خلكان، **وفيات الأعيان**،ج٥، ص١٨٨.

[٤٢] ألبير شاندور، **صلاح الدين الأيوبي البطل الأنقى في الإسلام**، ترجمة: سعيد أبو الحسن، دمشق،دار طلاس، ١٩٨٨، ص١١٧ .

[٤٣] ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٢، ص٢٨٣.

[٤٤] المرتضى الزبيدي، **ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب**، تحقيق: صلاح الدين المنجد،(دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية، ١٩٧١)، ص٨٩٩.

حافزاً قوياً للمريدين على القتال ببسالة وشجاعة نادرة. كما يورد المقريزي أن صلاح الدين أول من أنشأ خانقاه للصوفية بمصر ووقف عليها أوقافاً كثيرة وكان سكانها يعرفون بالعلم والصلاح وولي مشيختها الأكابر[45].

وإذا ولّينا وجهنا نحو المغرب نرى ظاهرة التصوف التي بدأت بالزهد كما في المشرق واضحة جداً في تأسيس دول مشهورة غيرت مسار التاريخ. إذ نجد أن دولة المرابطين (منتصف القرن الخامس الهجري) منشؤها رباط أقامه أحد الزهّاد في محل ناءٍ من الصحراء وذاعت أنباء زهده وتقواه في جميع أرجاء المغرب فقصده جموع غفيرة من الناس ومنهم يوسف بن تاشفين (ت٥٠٠هـ)الذي أصبح فيما بعد رئيساً لدولة المرابطين وقد كان الزهد والتقشف هما شعار الدولة وطابعها الخاص وابن تاشفين هو صاحب الموقعة المشهورة مع الإفرنج في الزلاقة (سنة ٤٧٩هـ)[46].

وإذا عرجنا إلى العصر الحديث فالشواهد تترى متتابعة مبرهنة على السياق الذي كرسه المتصوفة القدامى، فقد اشتهر منهم شيخ المجاهدين شامل الذي استحق لقب" أسد القوقاز" الذي قاد حركة الجهاد في وسط آسيا، كم قاد ثورة مدينة أنديجان في سنة ١٨٩٨م، وبعد قمع الثورة ١٨٩٩م أقدم الروس على إعدامه شنقاً[47]. وقد عاصره في الطرف الآخر من العالم الإسلامي الأمير عبد القادر الجزائري الذي بويع لزعامة الطريقة القادرية وقيادة حركة الجهاد ضد فرنسا في يوم واحد، ومكث في جهاده ١٧ سنة إلى أن سدت في وجهه كل السبل فاختار الخروج من الجزائر إلى سوريا أين تفرغ للعلم، والمجاهدة وجاور الإمام ابن عربي وأوصى قبل وفاته بأن يدفن بقربه وقد ترك كتاب المواقف الذي يعد من أحكم كتب التصوف وأنفسها. وفي الهند أورد الإمام الندوي أنّ تأثير مواعظ الصوفية في الناس، وانقيادهم للشرع أدى إلى أن تعطلت تجارة الخمر في كَلْكُتَّا وهي كبرى مدن الهند ومركز الإنجليز، وكسدت سوقُها، وأقْفرت الحانات، واعتذر الخمارون عن دفع الضرائب للحكومة، متعلّلين بكساد السوق، وتعطلت تجارة الخمر. ويضيف قائلا: لقد كانت هناك بجهود هؤلاء الصوفية أشجار كثيرة وارفة الظلال في مئات من بلاد الهند، استراحت في ظلها القوافل والطائفون المتْعَبون، ورجعوا بنشاط جديد وحياة جديدة.[48]

بعد هذا الاسترسال الذي تعنينا فيه إيراد مواقف كبار رجال التصوف دون غيرهم، يمكننا الخروج بمشهد عام يخفف من حدة النظرة السلبية التي وصم بها التصوف عبر تاريخه، خصوصا إذا وقفنا على حقيقة تم التطرق إليها سابقا وهي أن المحطات البارزة في التاريخ الإسلامي رسمت بأقلام وبنيت بأيدي رجال جمعتهم بالتصوف علاقة ممارسة وتفاعل كعهد صلاح الدين مثلا، إلا أن التعميم كالعادة من شأنه أن يحط من القيمة العلمية

---

[45] المقريزي، **الخطط والآثار**، ج٢، ص٤١٥.

[46] عصمت عبد اللطيف دندش ،**دور المرابطين في نشر الاسلام في غرب افريقيا** ،(دار الغرب الاسلامي،بيروت،١٩٨٨)،ص١٥.

[47] لوثروب استودارت، **حاضر العالم الإسلامي**، تعليق: شكيب أرسلان، (دمشق، دار الفكر، د.ت) ج١، ص٣٠١.

[48] أبو الحسن الندوي، **المسلمون في الهند**، (دار القلم، سوريا، ٢٠٠٢)، ص ١٤٠-١٤٦.

للنتيجة المتوصل إليها؛ فالمنابزون للتصوف وكذا المستغلون له كآلية تطويعية في تفكيك البنية الإسلامية يعتمدون هم أيضا على سندات تاريخية تبرر مواقفهم نورد هنا بعضا منها.

٤– تجسدات السلبية السياسية في التجربة الصوفية

كثيرا مارادت نسبة التصوف إلى عهود الإنحطاط والتخلف التي ضربت العالم الإسلامي بل ويحمّل المسؤلية على ذلك، ولعلنا لن نكون متناقضين إذا قلنا أن هذا الرأي يكتسب شيئا من المصداقية في بعض فترات التاريخ، وطبقا لما أشرنا إليه سالفا من أن التصوف من الظواهر الثناقفية في المنظومة الإسلامية أي أن إمكانية تقبله للصور المتناقضة سهلة جداً ،وهو ما وفّر للباحثين الغربيين سندا تاريخيا من تاريخ التصوف نفسه يسند ما يسعون إلى ترويجه وبلورة الفكرة الصوفية وفقه، ومما جاء في هذا المنوال ما ورد في كتاب "عوارف المعارف" أن بعض الصالحين كتب إلى أخ له يستدعيه إلى الغزو، فكتب إليه: يا أخي كل الثغور مجتمعة لي في بيت واحد والباب مردود، فكتب إليه أخوه :لو كان الناس كلهم لزموا ما لزمت لاختلت أمور المسلمين وغلب الكفار، فلابد من الغزو والجهاد، فكتب إليه: يا أخي لو لزم الناس ما أنا عليه وقالوا في زواياهم وعلى سجاداتهم: الله أكبر، لانهدم سور القسطنطينية[٤٩].

يقول الدكتور عمر فروخ "يقول الصوفية: إذا سلّط الله على قوم ظالماً فليس لأحد أن يقاوم إرادة الله أو أن يتأفف منها، لا ريب أن الأوروبيين قد عرفوا في الصوفية هذا المعتقد فاستغلوه في أعمالهم"[٥٠]

ومما ذكره المؤرخون في حادثة احتلال تونس من أن الفرنسيين إبان استعمارهم لها كانوا يجدون معارضة شديدة من الناس، فتفاهم الفرنسيون مع شيخ الصوفية على أن يدخلوا البلاد فلما أصبح الصباح قعد الشيخ مطْرِقاً رأسه يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فلما سأله أتباعه عن الأمر الذي يقلقه، قال لهم: "لقد رأيت الخضر وسيدي أبا العباس الشاذلي وهما قابضان بحصان جنرال فرنسا، ثم أوكلا الجنرال أمر تونس. يا جماعة؛ هذا أمر الله فما العمل؟ فقالوا له: "إذا كان سيدي أبو العباس راضياً، ونحن نحارب في سبيله، فلا داعي للحرب". ودخل الجيش بعدها العاصمة دون مقاومة تذكر[٥١].

ويورد مؤرخ الإستعمار الفرنسي جوليان في معرض شرحه للسياسة الفرنسية في شمال افريقيا و غربها كلاما عن سياسة الاحتواء التي طبقتها فرنسا في تلك المستعمرات المسلمة على الطرق والجماعات الصوفية بالشكل الذي جعل من هذه الطرق خادمة لمشاريعها التوسعية حيث يقول: "إن حكومة فرنسا قد عرفت كيف تجمع المتصوفة حولها عن طريق التمويل والحماية"[٥٢].

ويضيف إلى هذا المعنى "زكي مبارك" في كتابه عن التصوف قائلا: هناك كثير من الطرق ثابرت على انحرافها عن الطريق السوي, فكانت أروع انقياداً للمستعمرين من الزنوج الوثنيين، قال الرئيس "فيليب فونداس" وهو

---

[٤٩] السهروردي، **عوارف المعارف**، (بيروت، دار إحياء التراث الإسلامي، د.ت) ص١٦٦.

[٥٠] عمر فروخ، **التصوف في الإسلام**، (دار النهضة المصرية، القاهرة، د.ت) ص٢١٣.

[٥١] روم لاندو، **تاريخ المغرب في القرن العشرين**(دون بيانات النشر)، ص ١٣٤.

[٥٢] روم لاندو، **المرجع نفسه**، ص ١٢٠.

من المستعمرين الفرنسيين: لقد اضطر حكامنا الإداريون وجنودنا في إفريقيا إلى تنشيط دعوة الطرق الدينية الإسلامية لأنها كانت أطوع للسلطة الفرنسية، وأكثر تفهماً وانتظاماً من الطرق الوثنية التي تعرف باسم (بيليدو، وهاجون) أو من بعض كبار الكهان أو السحرة السود"[٥٣] . وهو ما جسدته الطريقة القادرية في غرب افريقيا بعد سقوط دولة الحاج عثمان دان فوديو وتبعتها في ذلك الطريقة التجانية بعد سقوط دولة الحاج عمر الفوتي، والأمر نفسه شهده تاريخ المقاومة الجزائرية حين شهد تآمرا حادا عليها من طرف الطريقة التيجانية مع السلطة الفرنسية خصوصا مع مقاومة الأمير عبد القادر الجزائري.

إن ما ذكرناه في هذه النقطة وما لم نذكره يصلنا بما تمت الإشارة إليه سالفا وهو أن الفكر الصوفي يتقبل القالب الثقافي، كما أنه يعود بنا إلى فكرة أخرى تمت الإشارة إليها وهي أن قطيعة معرفية وروحية كانت تنتاب المدارس في بعض الأحيان عن مصادر استمدادها وتراثها الذي تستمد منه حياتها لذلك شهد التاريخ ولا زال يشهد هذا التناقض بين تراث الأولين وواقع المتأخرين. وإن كان ذلك لا يعني أن نعمم حكمنا على بعض مظاهر التقعر في الفكر والسلوك الصوفي من التي أشرنا إليها على كافة المنظومة الصوفية لكون ذلك سيسدل الستار على صفعة ناصعة من صفحات التاريخ الفكري الإسلامي.

٥- إشكالية التفاعل السياسي في الفكر الصوفي.

لقد غالى الكثيرون في وصم المتصوفة بالسلبية والبعد عن الواقع السياسي بصفة خاصة، مؤكدين أن الفهم الإسلامي انحصر بين طرفين متناقضين، الأول: ثوري متفاعل، والآخر: صوفي انكفائي، مع ما يبدو للعيان من تجذر الديني في السياسي والعكس، فالدين – حتى في جانبه التعبدي البحت – يشكل في الإنسان مجموعة من القيم التي يتشربها عقله ونفسه وتصبح جزءا من ذاته، وتصيغ إدراكه وتصوراته عن الواقع الاجتماعي بشتى مكوناته، وعلى هذا الأساس يصبح الباب مفتوحا على مصراعيه بين ما هو ديني وما هو سياسي، كما أن الصوفي الذي حكم عليه بالانكفائية سجل في تاريخه ثورية تصاغرت أمامها ثورية العديد من التوجهات الأخرى.

وينطلق أصحاب هذه الدعوة من منطلق أن الإنسان يتصوف حين ينهزم؛ لأنه حين يفقد سنده في عالم المادة يذهب فيلتمس الغوث في عالم الروح. ونسي هؤلاء أن الحقائق التاريخية تثبت أن نشأة الزهد والتصوف كانت سياسية من ناحية ما، كما أن التصوف كاتجاه ديني يفرز – على الأقل – معطيات معرفية وقيما أخلاقية لا يمكن إنكار انعكاساتها على حقل السياسة بصفة خاصة من ناحية ثانية.

يشير محمد يتيم من هذا التصور ليرد على من ينادون بفصل الدين عن السياسة، فيقول: "إن فساد السياسة راجع إلى فساد في التجربة الصوفية، ونقصد بذلك إخفاقا في حمل النفس على مراد الله وفشل في تجربة التخلية والتحلية، إما بسبب راجع إلى السالك نفسه، أو إلى النهج أو الطريقة التي اختارها... وأساس الفساد في التجربة السياسية أيضا هو أن تكون مقطوعة الصلة بتجربة صوفية من الأساس، أو مقطوعة عنها بعد وصل

---

[٥٣] زكي مبارك، **التصوف الإسلامي**، (دار مدبولي، القاهرة، ١٩٧٧) ج١، ص٣٤.

كان في البداية، إذ يقل رجوع السياسي لذاته من حين لآخر لتعهدها، والرجوع بها إلى العهد الأول أي إلى عهد الترويض. إن التجارب القريبة والبعيدة تدل على أن فساد السياسة والبنيات الحزبية لم ينتج من نقص في البرامج والمؤسسات والقوانين فقط، بل إنه راجع في الجزء الأعظم منه إلى فساد السياسيين وافتقارهم إلى تجربة صوفية حقيقية سابقة، أو توقفهم عن ترويض النفس ومجاهدتها حتى لا تقع في أمراض السياسة، والتي على رأسها هوى متبع وإعجاب بالرأي ودنيا مؤثرة، وسقوط في المفسدات الكبرى للسياسة وعلى رأسها حب الجاه والتسلط[٥٤]. في ضوء هذا الطرح يصبح التساؤل مبررا في نظر الباحث حول إمكانية مساهمة التصوف في الحقل السياسي في إطار المشروع النهضوي المتواصل، خصوصا مع تنامي ظاهرة النموذج التركي، الذي بات يبهر الكثير من الناشطين في الحقل السياسي، من خلال طرحه الذي يتجاوز كثيرا مجرد الركون عند ما في التصوف من تجليات سياسية غير مباشرة، ليطال سقف الجماعات والتنظيمات السياسية ذات الإسناد الإسلامي. وهو نموذج لا يثير حفيظة الغرب كما تفعل المشاريع السياسية الأخرى ذات البعد الإسلامي، كما أنه يحافظ على الثوابت الإسلامية التي يقوم عليها.

الخاتمة

إن المنصف في قضية التصوف ودوره في التاريخ الإسلامي وكذا مدى إسهامه السلبي أو الإيجابي في السلم الحضاري للأمة الإسلامية، لا يمكنه بأي حال من الأحوال أن ينكر أن الظاهرة الصوفية قد فرضت نفسها وبقوة على كافة الأصعدة في حياتنا المعاصرة، وبرهنت وبقوة على قوتها وديمومتها، عكس العشرات إن لم نقل المئات من المذاهب والتيارات الأخرى التي تتابعت تترى في التاريخ الفكري الإسلامي، فالتصوف في حقيقة الأمر لم يعد حالة من الزهد والتعبد الفردي كما بدأ؛ فقد صار ت مؤسسات ضخمة لها امتداد عابر للقارات، بعضها يجتهد في أن يلعب دورا تنمويا وسياسيا واجتماعيا، وبعضها تماهى في الفلكلور وتم اختزاله إلى الظواهر الإحتفالية، وبعضها يتسامح في التعامل مع الآخرين، بما في ذلك أتباع الطرق الصوفية المنافسة، كما أن بعضها تعاون مع الاستعمار وانساق في برامج دمج العالم الإسلامي في الحضارة والثقافة العالمية، و هو ما تريده الولايات المتحدة والغرب بشكل عام في الوقت الراهن- لكن في المقابل ضرب العديد منها المثل العليا في التصدي للمستعمر وثقافته بضراوة، وهو ما يعيدنا إلى النقطة المحورية التي كنا قد أشرنا إليها وهي أن ثقافة التصوف تتصف بما يطلق عليه بعض علماء النفس والاجتماع "الثناقيمية"؛ أي إنتاج قيم متعارضة أو متضادة. ومعنى هذا أن الفكر الصوفي ينطوي على ما بإمكانه أن يدفع في طريق الإنجاز والعكس في آن واحد. وتأتي حركة الواقع أو استغلال المتصوفة لهذا الفكر؛ لتبين عبر التراكم التاريخي ما إذا كانوا قد حولوا هذه الأفكار إلى طاقة إيجابية، أم استمرءوا التخاذل؛ وهو ما ورد معنا في سالف ما ورد في هذه الدراسة. وتنزيلا لهذه الحقيقة من التصور إلى الواقع فإننا نجد أن المتصوفة أنتجوا سلوكا سياسيا متعارضا، ثوريا فيأحيان كثيرة كنموذج الأمير

---

[٥٤] محمد يتيم، **فصل المقال فيما بين التصوف والسياسة من اتصال**، مقال منشور في موقع "التصوف الإسلامي" www.islamic-sufism.com ، ٢٥/ ١٠/ ٢٠٠٨ .

عبد القادر الجزائري مثلا، وتخاذليا منبطحا في الفترة نفسها والبلد نفسه كنموذج الطريقة التجانية على سبيل المثال، فتمظهرات وقناعات المؤسسات الصوفية ليست نمطية أو واحدة يمكن القياس عليها، أو تعميمها حسب ما تريد أمريكا في الوقت الراهن. فهناك طرق صوفية كافحت الاستعمار بضراوة مثل القادرية والنقشبندية كما توجد أخرى تعاونت معه مثل التيجانية والعلوية وهناك طرق نهضت بمجتمعاتها وكونت كيانات سياسية ذات شأن مثل السنوسية والمهدية، اللتين أسستا كيانات سياسية مكتملة الأركان وأعطت نماذج طرة للعمل السياسي الفعال المؤطر بالتصورات الصوفية، كما أن هناك طرق أخرى عاشت عالة على مجتمعاتها في الزوايا والربط والخانقاوات ولم تحرك ساكنا في الواقع الذي تعيش فيه.

قائمة المصادر والمراجع

ابن الجوزي،(١٩٨٥) **صفوة الصفوة**، تحقيق: محمود فاخوري، بيروت: دار المعارف،

ابن العديم، (١٩٨٨)**بغية الطلب في تاريخ حلب**، تحقيق: سهيل زكار، دمشق: دار الفكر.

ابن العماد الحنبلي،(د.ت) **شذرات الذهب**، بيروت: دار المسيرة.

ابن تغري بردي،(د. ت) **النجوم الزاهرة**، مصر: وزارة الثقافة المصرية.

ابن خلدون،(١٩٨٩) **المقدمة** بيروت: دار إحياء التراث العربي.

ابن خلكان،(١٩٧٧) **وفيات الأعيان**، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار التراث العربي.

ابن عربي،(١٩٥٨) **الوصايا**، دمشق: مطبعة كرم.

ابن قاضي شهبة،(١٩٧١) **الكواكب الدرية في السيرة الفورية**، تحقيق: محمود زايد، بيروت: دار الكتاب الجديد.

ابن كثير،(١٩٦٦) **البداية والنهاية**، بيروت،: دار المعارف.

أبو الحسن الندوي،(٢٠٠٢) **المسلمون في الهند**، سوريا: دار القلم.

أحمد أمين،(١٩٥٢) **الصعلكة والفتوة في الإسلام**، مصر: دار المعارف.

أحمد أمين،(١٩٦٦) **ظهر الإسلام**، القاهرة: النهضة المصرية.

أحمد شلبي،(١٩٦٨) **الجهاد في التفكير الإسلامي**، القاهرة: مكتبة مدبولي.

ألبير شاندور،(١٩٨٨) **صلاح الدين الأيوبي البطل الأنقى في الإسلام**، ترجمة: سعيد أبو الحسن، دمشق: دار طلاس.

الإمام السبكي،(١٩٩٣) **طبقات الشافعية**، العراق: هجر للطباعة والنشر.

جريدة الخليج «الإماراتية» العدد (٩٦٨٠)، بتاريخ: ١٩ نوفمبر ٢٠٠٥،.

جريدة السفير اللبنانية بتاريخ ٢٢ديسمبر ٢٠٠١م.

جريدة الشرق الاوسط بتاريخ ١٨ نوفمبر ٢٠٠٥م.

جهاد عودة و عمّار علي حسن،(٢٠٠٢) **كراسات إستراتيجية**، السنة الثانية عشرة، العدد ١٢٠.

الحسن الأربلي،(د.ت) **مدارس وجوامعها وربطها وحماماتها**، دمشق: مطبعة الترقي

الخطيب البغدادي،(د.ت) **تاريخ بغداد**، دمشق: دار الفكر.

روم لاندو،(د.ت) **تاريخ المغرب في القرن العشرين**(دون بيانات النشر)

زكي مبارك،(١٩٧٧) **التصوف الإسلامي**، القاهرة: دار مدبولي.

السهروردي،(د.ت) **عوارف المعارف**، بيروت: دار إحياء التراث الإسلامي.

السيوطي، (١٩٦٧)**حسن المحاضرة**، مصر: مطبعة عيسى البابي الحلبي.

شوقي ضيف،(١٩٨٠) **عصر الدول والإمارات**، مصر: دار المعارف.

شوقي ضيف،(١٩٧٢) **تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)** مصر: دار المعارف.

عبد الحليم محمود، (١٩٦٧) **أبو الحسن الشاذلي الصوفي المجاهد والعارف بالله**، القاهرة: سلسلة أعلام العرب.

عبد الحليم محمود،(د.ت) **التصوف عند ابن سينا** القاهر ة: مكتبة دار العروبة.

عبد الوهاب الشعراني،(١٩٩١) **لواقح الأنوار القدسية**، حلب: دار القلم العربي.

عبد الوهاب المسيري،(٢٠٠٦) **الإسلام والغرب**، مقال على قسم المعرفة في 'الجزيرة نت'، في ٢٠٠٦/٥/١٧م.

العجلوني إسماعيل،(١٩٨٨) **كشف الخفاء ومزيل الإلباس**، بيروت: دار الكتب العلمية.

عدنان أبو زيد علي،(٢٠٠٣) **الديمقراطية بين واقع عربي وتأويل غربي**، جريدة الزمان– العدد ١٦٣٣، بتاريخ (٢٠٠٣/١٠/١٢م)

عصمت عبد اللطيف دندش،(١٩٨٨)**دور المرابطين في نشر الاسلام في غرب افريقيا**، بيروت: دار الغرب الاسلامي.

علي أحمد الفيومي،(٢٠٠٢) **الإسلام المعدّل بعد١١ سبتمبر ٢٠٠١م**، جريدة الأهرام، بتاريخ ٢٠٠٢/٠١/١٤م.

عمر فروخ،(د.ت) **التصوف في الإسلام**، القاهرة: دار النهضة المصرية.

لوثروب استودارت،(د.ت) **حاضر العالم الإسلامي**، تعليق: شكيب أرسلان، دمشق: دار الفكر.

محمد عبده،(١٩٧٢) **الأعمال الكاملة**، جمع: محمد عمارة، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

محمد يتيم،(٢٠٠٨) **فصل المقال فيما بين التصوف والسياسة من اتصال**، مقال منشور في موقع "التصوف الإسلامي" www.islamic-sufism.com ، ٢٥/ ١٠/ ٢٠٠٨ .

المرتضى الزبيدي،(١٩٧١) **ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب**، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دمشق: مطبوعات مجمع اللغة العربية.

المقريزي،(د.ت) **الخطط والآثار**، بيروت: دار صادر.

و كالة الأنباء الإسلامية،(٢٠٠٨)**هيئة راند: استراتيجية جديدة للمواجهة مع العالم الإسلامي**،
www.islamicnews.net، ٠١/ ١١/ ٢٠٠٨.

-Building Moderate Muslim Networks,(٢٠٠٧) by Center for Middle East Public Policy. 26/03/2007.
-Stephen Schwartz,(٢٠٠٥) **Identification of Islam** , in The Weekly Standard . ٠٧/٠٢/٢٠٠٥.
-David E. Kaplan,(٢٠٠٥) **Hearts, Minds, and Dollars**, in Us news and world Report. www.usnews.com/usnews/news/articles/050425. 25/04/2005.